

الانعكاسات الاجتماعية للاستيطان الأوربي في المغرب على عهد الحماية الفرنسية



د/ جلال زين العابدين
كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس
فاس - المملكة المغربية -

مقدمة:

أدت الهيمنة الاستعمارية والسياسة الفلاحية التي اتبعتها سلطات الحماية الفرنسية بالمغرب إلى إحداث تحولات اقتصادية واجتماعية عميقة في الوسط القروي؛ حيث ستمت هيكلة بناه الإنتاجية على أساس مقتضيات السوق الفرنسية والمراكز الرأسمالية، فاحتكر الأوربيون الفلاحة العصرية المعتمدة على التقنيات والمفاهيم الزراعية الحديثة والتي تحظى بمختلف أشكال الدعم من إقامة بنيات تحتية، ونظام المكافآت المتعددة والمتنوعة للمستوطنين الزراعيين لتسهيل غرس جذورهم في التربة المغربية أولاً، ولتسهيل اندماجهم في الاقتصاد الفلاحي الفرنسي ثانياً.

وإلى جانب الفلاحة الكولونيلية، نجد الفلاحة المغربية التي أحاطتها سياسة الحماية بحزام من البؤس والتخلف، فكان من نتائجها تجميد وتفتيت هذه الفلاحة رغم أهميتها الاقتصادية والاجتماعية بالنسبة للسكان الحضريين والقرويين على السواء، فأغلقت أمامها جميع أبواب الطموح لتجاوز وضعية الفلاحة المعاشية، وقد أدت الأشكال الجديدة من الاستغلال التي رافقت الاستيطان الأوربي إلى ظهور تناقضات اجتماعية عميقة مست الأسر والقبائل، وأعادت تصنيف المجتمع المحلي حسب المهن والدخل ومستوى المعيشة، كما أدت إلى زعزعة كيان المجتمع المغربي، وإلى تصدع البنى والعلاقات القبلية لتحل محلها علاقات الإنتاج المبنية على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج والفردانية التمايز الاجتماعي، وإلى بروز علاقات اجتماعية لم يألّفها المجتمع المغربي الذي كان مبنيًا على التآزر والتضامن وعلى أساس علاقات القرابة وروابط الدم وأواصر التضامن القبلي.

- أراضي الأحباس، وهي الأراضي التي تم توقيفها على الأحباس، وهي كذلك لا يمكن تفويتها.

- أراضي الخواص، وهي أراضي في ملكية الأفراد لكن كما سبقت الإشارة إلى ذلك ظل انتشارها محدوداً³.

لم يكن التعقيد الذي ميز البنية العقارية في المغرب غير محفز للإنتاج والاستثمار الفلاحي بالنسبة للمغاربة فحسب، بل شكل حاجز صد قانوني بالنسبة للأوروبيين الطامعين لامتلاك الأراضي المغربية مما جعلهم يناورون عن طريق المخالطة والحماية القنصلية، قبل أن يطرحوا الموضوع للتفاوض على أساس أحقيتهم في امتلاك العقار مقابل أدائهم للضرائب الفلاحية، وهو موضوع تطرقت إليه المواد 11 و 12 و 13 من مؤتمر مدريد، والمادتين 59 و 60 من مؤتمر الجزيرة الخضراء⁴.

وإذا كان إنتاج هذا القطاع قد ظل تحت رحمة التقلبات المناخية وعاني من البنية العقارية المعقدة ومن الأساليب التقليدية المستعملة، فإن عوامل أخرى أسهمت في تغيير ملامحه، وخاصة الإكراهات الجديدة التي أفرزها التدخل الاستعماري. ذلك أن دخول المستعمر إلى المغرب وما تبعه من جحافل المعمرين، أدى إلى خلخلة هذا التوازن من خلال استيلائهم على أجود وأخصب الأراضي الفلاحية، فأخذت وسائل العيش تتضاءل بالنسبة للفلاحين تدريجياً بسبب نقص مساحة الأراضي الصالحة للزراعة، ويقول القبطان روميو (Capitaine Romieu) في هذا الصدد عن بني وراين «إن دخولنا البلاد قد أدخل بالتوازن العريق بين أعداد السكان وبين الإنتاج، وهو توازن كان يفيد السكان أنفسهم، فأعطي المعمرون أزكى الأراضي التي كان الناس يستغلونها (...) وحددت مناطق الغابات وأسندت إدارتها إلى مصلحة المياه والغابات، وذلك ما

◀ أولاً - الفلاحة المغربية في استراتيجية سلطات الحماية الفرنسية:

1 - الفلاحة المغربية قبل الحماية: كانت الفلاحة تلعب دوراً اجتماعياً واقتصادياً مهماً في حياة المغاربة، وقد ظلت لوقت طويل تقوم على علاقات بين عاملين: الإنتاج المحلي والاستهلاك الذاتي للسكان، فكانت تقوم بتلبية حاجياتهم كما ونوعاً. غير أنها عانت من توالي سنوات الجفاف التي كانت تدوم أحياناً لمرات طويلة، كان آخرها الجفاف التي امتد لخمس سنوات بشمال المغرب بين سنتي 1978 و 1883، وإلى سبع سنوات في الجنوب أي إلى حدود سنة 1885. كما عانت من الاجتياح الكثيف لجحافل الجراد، إذ يبرز نيكولا ميشيل (Nicolas Michel) أنه بين 1800 و 1912 اجتاح الجراد 32 مرة جهات مختلفة من المغرب في ظل انعدام إمكانية محاربه¹. يضاف إلى هذه المشاكل مشكل البنية العقارية المعقدة وغير المساعدة، والتي لم تمنح السلاسة والمرونة الكافية للاستثمار في الفلاحة، حيث أن الملكية الخاصة للأرض لم تكن منتشرة في المغرب قبل الحماية، وكانت محصورة جداً في أراضي بعض العائلات الكبرى². وكانت الأرض تتوزع من الناحية القانونية إلى:

- الأراضي الجماعية أو أراضي القبائل، وهي أراضي في ملكية الجماعة ولا يمكن التصرف فيها أو تفويتها.

- أراضي المخزن، وهي أراضي تابعة للدولة وتشمل الأملاك المخزنية وكل ما لا يمكن امتلاكه لأنه في مصلحة العموم مثل الشواطئ والغابات.

- أراضي الجيش، وهي أراضي تابعة للدولة أقطعتها لبعض القبائل مقابل تقديمها لخدماتها العسكرية لصالح المخزن.

القانونية الجديدة. ثم صدر ظهير 7 يوليوز 1914 فجعل الأراضي الجماعية وأراضي الأحباس وأراضي الكيش، غير قابلة للتفويت، ووضعها تحت حماية الدولة التي أصبح لها حق مراقبتها تسييرها¹¹. غير أنه بعد سنتين (1916) تم تأسيس «لجنة استعمار الأراضي» من أجل تشكيل وتوزيع القطع الأرضية القروية، وقررت سلطات الحماية انسجاما مع مبادئ الاستعمار المختبرة، تدعيم الاحتلال العسكري بإسكان عائلات فرنسية في القرى المغربية، وسيكون لهذه العائلات تأثير حضاري على الفلاحين المغاربة بالمثل الذي ستعطيه لهم¹². وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى، صدر ظهير جديد في 27 أبريل 1919 جعل الأراضي الجماعية تحت رقابة مجلس وصاية له صلاحيات تفويت أراضي الجماعات لطرف ثالث، فاقطعت أجزاء مهمة من الأراضي تحت غطاء المصلحة العامة، وسهلت الاستيلاء عليها لفائدة الكولون بطرق شرعية غير منازع فيها¹³، فتدهورت الجماعات ولحق التفجير بأفرادها وتغيرت الهياكل الزراعية التقليدية مما انعكس على الوضع الاجتماعي لسكان البوادي.

إن ما تجب الإشارة إليه هو أن السيطرة والاستيلاء على أراضي الفلاحين في المغرب، قد ارتبط إلى حد كبير بالغزو العسكري، فالمستوطنون المزارعون كانوا يسبرون على حد تعبير أحمد تافسكا، في عصابات مسلحة خلف القوات الاستعمارية التي تتولى إبادة ومطاردة السكان لتتيح المجال للمستوطنين للحصول على أملاك فلاحية، وتزيل كل ما من شأنه أن يشعرهم بأنهم غرباء في مجتمعهم الجديد، وتصفهم الصحافة الاستعمارية بأنهم "طلّاع جيش قوي"¹⁴. لذلك قامت السلطات الفرنسية بتمهيد الطريق أمام الاستيطان الزراعي وتدعيمه، لأنه هو الذي يعطي حضورا واستمرارا للنفوذ الفرنسي بالمغرب، وهو ما يوضحه كاديل (Cadile. J) بقوله: «لقد

اعتبر نقصا من حقوق السكان على هذه المناطق»⁵.
2- الاستيطان الزراعي وانعكاساته على الفلاحة المغربية: كان الجنرال ليوطي حذرا منذ البداية في تعامله مع مسألة الأرض في المغرب، فقد كان يدرك أن «مسألة دقيقة على شاكلة التنظيم الاجتماعي للمغرب (...)»، يمكن أن تكون له انعكاسات خطيرة جدا على أمن وتنظيم البلاد. ويجب التحرك باحتياطات دقيقة، وعدم الإقدام على تغيير الوضعية القانونية للأراضي الجماعية إلا بعد أن تكون قواعد الغزو قد ترسخت، وحتى تكون الإدارة قد بدأت تسيير بشكل طبيعي»⁶. ولم يكن من السهل العثور على صيغة تمنع الابتزاز.

الذي جرى في الجزائر، وتحول دون تجريد الفلاحين المغاربة من أراضيهم⁷، مع ما عرفوا به من تعلق وارتباط غريزي بأرضهم وغيرتهم عليها⁸، فنشط تفكير ساسة الحماية على مستوى التحليل والتشريع واستنباط الحلول، لوضع أسس بناء ضخمة من التأويلات والنظريات والنصوص القانونية، تشرع وتبرر ابتزاز الفلاحين والسيطرة على أراضيهم، تارة باسم استرجاع أراضي الدولة التي استولى عليها السكان في مراحل ضعف السلطة المركزية، وتارة بحجة الحصول عليها بتواطؤ مع عناصر قيادية في السلطة المركزية، وتارة أخرى لعجز الفلاحين وعدم قدرتهم على الإدلاء بالوثائق الضرورية التي تؤكد ملكيتهم للأرض.

وهكذا سنت إدارة الحماية مجموعة من التشريعات شكلت القاعدة القانونية للنهب والابتزاز⁹، فأصدرت ظهير 12 غشت 1913 الذي نص على تسجيل العقارات، وضرورة التدقيق في الوثائق المدلى بها¹⁰. فأصبح لكل قطعة أرضية بمقتضاها سند عقاري يحمل اسما ورقما وتصميما للملكية، وسهل ذلك تسلط الأجانب على الأرض لجهل المغاربة بالإجراءات

على الطريقة الأوربية لفلاحين جردوا من أراضيهم الخصبة؟

لقد ظل الفلاح المغربي خارج منظومة الإرشاد الكولونيالي، الذي ركز على توعية الكولون الأوربي بأهمية وضرورة استعمال الأساليب العصرية في الفلاحة، كما حرص الفلاحون الأوربيون على عدم انتقال المعرفة بهذه الأساليب العصرية إلى جيرانهم الفلاحين المغاربة، ليحافظوا على تفوق إنتاجهم، فبقي الفلاحون المغاربة يعتمدون على ما ورثوه عن أسلافهم من طرق ووسائل زراعية تقليدية، وهو ما كان يدفع أحيانا بعض الفلاحين المغاربة إلى "التجسس المعرفي" على الكولون الأوربي عبر استخدام معارفهم وأصدقائهم العاملين في مزارع الأوربيين، لاكتشاف سر تخلف إنتاجهم عن إنتاج الأوربيين، أو سر عدم تأثر حقول الكولون بأمراض بتتاح المنطقة، أو طرق تخلص الأوربيين من أعشاب ضارة تعجز الأساليب التقليدية عن مكافحتها¹⁸.

وواجه الفلاحون المغاربة بالإضافة إلى تربص المعمرين بأراضيهم، عوامل طبيعية أرهقتهم وزادت من بؤسهم مثل الجفاف، والعواصف الرعدية والثلجية والجراد وهو ما أسهم في تأزم وضعية الفلاحين وتراجع مستواهم المعيشي، كما دفعتهم في العديد من الأحيان إلى الخروج عن القبيلة، في إطار هجرات جماعية للبحث عن مصدر عيش ملائم، يعوض النقص الحاصل في المدخول الفلاحي¹⁹.

أما الضريبة الفلاحية (الترتيب) فقد شكلت إلى جانب العوامل السابقة عبئا ثقيلا على الفلاحة الأهلية، مما زاد في تأزمها. ولم تكن مصلحة الضرائب تأخذ في الحسبان ظروف الفلاحة المغربية، حيث كانت تحدد مبلغها بناء على تقديرات اللجنة الجهوية المكلفة بوضع تقديرات إنتاج المغاربة، وعلى ضوء ذلك كانت تتم عملية تحديد الترتيب الواجب

تم الاستيطان الرسمي بشرق تازة في 1924، وفي الريف ما بين 1926 و1930 بالموازاة مع التهدة العسكرية¹⁵. وقد وصل هذا الاستيطان إلى أقصى تأثيره في حياة الفلاحين، كما يؤكد ذلك ألبير عياش حيث يقول «في الريف الشرقي وسهول ما بين تازة ووجدة وزعت القبائل الرحلية سابقا فيما بينها أراضي فقيرة تزرعها بالحبوب (...) غير أن الهجرة نحو السهول المستعمرة تبدو مفروضة»¹⁶.

ونشير إلى أن الاستيطان الزراعي كان قد تعرقل تطوره في بداية الحماية بسبب تمسك المغاربة بأراضيهم، واستمرار المقاومات المسلحة في عدة مناطق بشكل أعاق الاستيطان الأوربي. وبعد القضاء على هذه المقاومات أصبح الفرنسيون أحرارا وسارعوا إلى الحصول على المزيد من أراضي الأهالي المغاربة مما أدى إلى تدمير القاعدة الاقتصادية للفلاحين المغاربة الذين تزايدت أراضيهم المغتصبة والمسلوبة، وتحول قسم كبير منهم إلى «خماسة»، أو إلى عمال في المزارع الأوربية¹⁷، كما تحول الوسط القروي إلى مصدر واسع النطاق للهجرة سواء كان داخل البلاد أو إلى خارجها.

وهكذا وجدت تشكيلة من المعمرين نافسوا الفلاحين المغاربة الذين أصبحوا في درجة دنيا مقارنة معهم، لأن زراعتهم التقليدية ذات الإنتاج البسيط لم تصمد أمام الزراعات المنتجة في الضيعات الأوربية العصرية المستفيدة من الأسمدة الكيماوية، والبذور المنتقاة، كما أن الفلاحين المغاربة لم يستفيدوا من الامتيازات المختلفة التي منحتها سلطات الحماية للمعمرين الأوربيين. فرغم أن الظواهر لم تميز بين الأهالي والمستوطنين من حيث حق الاستفادة من المنح والمكافآت، إلا أن إمكانيات الفلاحين المغاربة المتواضعة لم تسمح لهم باستيفاء الشروط المحددة لنيل هذه المكافآت. فكيف يمكن الحديث عن إدخال تقنيات وأساليب حديثة في عملية الإنتاج أو الزراعة

المواشي، جراد...)²⁴.

وإضافة إلى تقديم السلفات و الإعانات، كان بإمكان الشركات الاحتياطية الأهلية، إحداث جمعيات تعاونية يعهد إليها هي الأخرى بصيانة المنتج وتحويله وتسويقه وفق الشروط المتبعة في المؤسسات الصناعية (مضاربة، احتكار، تحقيق القيمة المضافة...)، وذلك - كما ينص عليه ظهير 24 أبريل 1937 بعد الحصول على ترخيص من إدارة الداخلية استنادا إلى موافقة إدارة الفلاحة والتجارة والغابات، وكذا المسؤول عن الصناعة التي قد يهملها الأمر²⁵ وفي هذا الصدد شهدت سنة 1937 بالمغرب تأسيس 11 «تعاونية أهلية فلاحية» المعروفة باسم: (Coopérative Indigène Agricole أو CIA) بمقتضى ظهير 24 أبريل 1937 في مجموعة من المدن، الرباط، البيضاء، القنيطرة، مكناس، فاس، تازة، وجدة، واد زم، مازاكان، آسفي، ومراكش²⁶. وحتى لا نعطي لإجراءات سلطات الحماية أبعادا أكثر من حجمها، نتساءل ماهي حقيقة وفعالية هذه المحاولات التحديثية؟

لم تؤد هذه الجهود في الواقع إلى النتائج المرجوة من طرف الأهالي لأسباب عديدة، ذلك لأن إدارة الحماية كانت تسعى من وراء كل المبادرات التي اتخذتها في هذا المجال إلى الاستحواذ على أقصى ما يمكن من الأراضي لتوزيعها على المستوطنين، وإلى تكوين «طبقة» متوسطة من الفلاحين الذين يركزون سياستها، والحد في الوقت نفسه من الهجرة القروية للحفاظ على حشود العمال الفلاحين الذي يمكن استثمارهم في ضيعات المعمرين²⁷. فالقبايل ارتفعت معاناتها من هذه القروض التي كانت تمنحها هذه التعاونيات المحلية²⁸ بفوائد عالية²⁹، كما أن هذه القروض لم يكن يستفيد منها إلا الفلاحون الميسورون، أما صغار الفلاحين فقد كانوا في حالة

على كل فلاح، وكذلك إعداد تقديرات الإنتاج الفلاحي²⁰، كما أن هذه التقديرات لم تكن تتم على أساس بحث موضوعي لوضعية الفلاحة والأشجار المثمرة ورؤوس الماشية التي توجد في حوزة المغاربة، بل كانت تتم بناء على تصورات أعوان السلطة المحلية التي غالبا ما كانت تجانب الواقع، ليجد الفلاح نفسه ملزما بمبالغ تفوق إلى حد كبير محصوله الفلاحي²¹.

◀ ثانيا- بعض الإجراءات الإصلاحية لحماية في مجال الفلاحة المغربية:

اتخذت الإدارة الفرنسية عدة مبادرات، لتظهر أنها تريد النهوض بالفلاحة المغربية التقليدية وإصلاح العالم القروي، فتم التفكير في إنشاء تعاونيات فلاحية تقوم بتخزين المنتج وتحويله وبيعه وتقديم قروض لصغار الفلاحين لحمايتهم من المرابين، ويتعلق الأمر بما كان يعرف بالجمعيات أو «الشركات الاحتياطية الأهلية» (Sociétés Indigènes de Prévoyance) أو (SIP) التي أنشئت ونظمت بمقتضى ظهير 26 ماي 1917²² المغير بظهير 19 يوليوز 1917، وظهر 12 أبريل 1912، وظهر 28 نونبر 1921، ثم ظهر 28 يناير 1922؛ وهي عبارة عن مؤسسات مدنية تحدث بقرار وزاري يحدد دائرتها الترابية، تشمل إلزاما كل الفلاحين الأهليين غير المحميين المسجلين في قائمة الترتيب²³. وتهدف إلى إعانة الفلاحين بالقروض، مادية كانت أو عينية، ليتمكنوا من مواصلة أعمال فلاحتهم ومن توسيع نطاقها، واعتماد التقنيات الحديثة الضرورية في ميدان الفلاحة وتربية الماشية والمساهمة في تطبيقها، وتهدف أيضا إلى حماية الفلاحين الأهالي من المضاربات العقارية (الربا- الاحتكار)، كما يمكنها أن تقوم مقامهم عند الحاجة بإلغاء كل رهن أو التزام يبدو لها مبالغا أو العمل على الحد منه، والمساهمة كذلك في عقد تأمينات ضد الكوارث الفلاحية (حريق، موت

مستقبلاً³⁴. وعموماً كانت ترمي «البيزان» من خلال تدخلاتها هاته تحقيق تغيير جذري وإصلاح شامل في حياة الفلاح المغربي. فالتعليم الإلزامي، والمراقبة الطبية ضد الأمراض، والمساعدة الاجتماعية واستخدام الآلات...، ستسهم في توعية الفلاح وتجعله يتحرر من الاعتقادات الروتينية والقيود التي كانت تقف عائقاً أمام تقدمه. وبلا شك فالإصلاح سيكون صدمة نفسية صادرة عن الممكنة، وهو ما سيؤدي إلى زعزعة أنماط الانتاج التقليدية والرفع من القدرة الإنتاجية للفلاح ثم تغيير نمط عيشه³⁵.

◀ ثالثاً : مظاهر التطور الحاصل في العلاقات الاجتماعية

بعد أن فرضت فرنسا سيطرتها على المغرب وتوغلت داخل أراضيه وجدت أمامها عدد من خدام المخزن، وهم الفئات الحاكمة المكونة من شيوخ القبائل والقواد والأعيان وبعض الزوايا. وقد أبقى الاستعمار على معظم هذه الفئات وامتيازاتها الأدبية والاجتماعية، ومنحها مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية عند إدخال نظم تسجيل الأراضي لكي تكون دعامة وسندا للمحتل، ولكنه جردها في المقابل من نفوذها السياسي الحقيقي لأنه أصبح الحاكم الفعلي للبلاد. وظلت هذه الفئات أداة مسخرة من طرف الاستعمار حيثما يريد واجهة لإضفاء الشرعية على بعض سياساته الاستيطانية³⁶.

وقد أدت الهجرة القسرية بفعل التدخل الاستعماري في القرى إلى فقدان المغرب لتوازنه السكاني جغرافياً، حيث أفرغت البادية من سكانها، وازدحمت المدن بعشرات الآلاف من المهاجرين الفلاحين، الذين فقدوا كلياً أو جزئياً صلتهم الماضية بعالم الزراعة ولا رابطة تاريخية لهم بعالم المدينة ومجتمعها، وفجروا الإطار التقليدي للمدن

عدم تأدية ديونهم في الأجل المحدد عرضة لفقدان أراضيهم، أضف إلى هذا أن عدم إشراك الفلاحين، وهم المعنيون الأساسيون بكل ما تقرره الشركات الاحتياطية الأهلية (SIP) والتعاونيات الفلاحية الأهلية (CIA) في اتخاذ القرار، أفرغ الجانب التعاوني التي تدعو إليه هذه المؤسسات من كل مضمون حقيقي، وجعل منها مجرد مجال لتكوين الأطر التقنية والمراقبين أكثر منها مجالاً لتكوين الفلاحين وتحسين أوضاعهم³⁰.

وأنشأت الإقامة العامة إضافة إلى هاتين التعاونيتين، مركزية التجهيز الفلاحي للبيزان Central d'Equipement Agricole (du Paysanat أو C.E.A.P) بظهير 26 يناير 1945؛ وهي مؤسسة عمومية تتمتع بالشخصية المدنية والاستقلال المالي³¹، تهدف إلى تنمية الفلاحة وتربية الماشية، بتقديم قروض للفلاحين وتأطيرهم تقنياً وبيع المعدات الفلاحية أو كرائها لهم³².

ولإنجاز مهامها، اعتمدت مركزية الـ (C.E.A.P) على مكاتب محلية تقوم بتقديم معلومات حول التكوين الكيميائي للتربة ونوعية الأسمدة التي ينبغي استخدامها وطريقة محاربة التعرية والأمراض النباتية لقطاع التحديث الفلاحي (Modernisation du Paysanat Secteur de أو S.M.P) المنشأ بظهير 5 يونيو 1945³³، وهو عبارة عن مؤسسة عمومية تسيروها السلطة المحلية ترمي إلى تحقيق أهداف مادية واجتماعية وأخلاقية تتمثل في تحسين الإنتاج وتوجيه الفلاحين نحو زراعات جديدة والعمل على تطبيق مخطط للتنمية وتحسين أوضاع الفلاحين الاجتماعية، وذلك ببناء المدارس والمستوصفات ودور السكن قصد تحسين أوضاع الفلاحين الاجتماعية، وإشراكهم في مداوات مجالس S.M.P قصد تهيئتهم لتحمل مسؤولياتهم

هذا النشاط، والقابل للتوزيع والاستحواذ من خلال الآخرين محدودا للغاية³⁹.

إن الاستعمار الذي أدخل الرأسمالية إلى البلاد لم يزد إلا في تأزمها، ولم يسهم إلا في «بلترة» أهاليها وتهميشهم، وتحويل أغلبيتهم إلى خماسة ومزارعين أو يد عاملة بخسة في متناول المعامل الاستعمارية التي تحول ثروات البلاد إلى بلدها الأصلي. صحيح أن الاستعمار قد ساهم في عصنة الفلاحة بالمكننة وتقنيات الري الحديثة، ولكن ليس لصالح البسطاء من المغاربة بل لصالح المستوطنين أو لصالح «الأرستقراطية العقارية» التي ستستولى بعد الاستعمار، على ما سمي بـ«أراضي المعمرين المسترجعة»؛ ولكن صحيح أيضا أن الرأسمالية الاستعمارية قد أسهمت في تفكيك المجتمع المغربي وأشكال تضامنته التقليدية، وشردت العائلة وقتلت الآلاف من الأهالي المغاربة تحت ذريعة التهدة والسلام⁴⁰. فكان السلم والتهدة الكولونياليين» مساهمة فعالة في إيقاف صيرورة التاريخ الاجتماعي الداخلي بتجميد البنيات المحلية، وبإدخال تحول اقتصادي اجتماعي وسلوكي⁴¹.

ومع تطور نظام ملكية الأرض، وظهور تقسيم العمل ونمو المبادلات التجارية بدأت تتبلور عملية التمايز الاجتماعي. وقد أصبحت هذه العلاقات تحل تدريجيا محل التمايزات القبلية التقليدية القائمة على أساس علاقات القرابة وروابط الدم وأواصر التضامن القبلي. وقد ساهم التغلغل التدريجي لعلاقات الإنتاج الرأسمالية في هذا التحول من غير أن تختفي تماما البنيات التقليدية بل حدثت عملية مزوجة وتهجين بين الهياكل والتمايزات القبلية التقليدية والعلاقات والتمايزات الرأسمالية الحديثة⁴².

وهكذا أخذت عمليات التمايز الاجتماعي تسير في اتجاهات متعددة. فالتغيير الذي أجراه الفرنسيون في شكل الملكية، لم يؤد إلى خراب الفئات

التاريخية المغربية، وشكلوا قاعدة كبيرة من العاطلين وأشباه العمال في خدمة الاقتصاد الرأسمالي الأوربي، ووضعوا بذلك اللبنة الأولى في تكوين الطبقة العمالية المغربية³⁷.

وبإدخال نمط الإنتاج الرأسمالي الاستعماري عملت سلطات الحماية على تفكيك الملكية الجماعية للقبائل المغربية، والتي هي أساس التضامن القبلي. ومركزت سلطات الحماية الملكية الفردية للأرض ووسائل الإنتاج الأخرى، وأصدرت من أجل ذلك سلسلة من القوانين لتدعيمها وتعميمها. واستهدفت من ذلك تسهيل عمليات انتزاع أجود الأراضي، وجعلتها تحت تصرف المعمرين. وأدى ذلك إلى فصل الفلاح عن أرضه، وبالتالي عن «جماعته» وعشيرته وقبيلته. ووقع تحول وتدجين لدور «الجماعة» لدى القبيلة، وصدرت قوانين تحدد مهمتها الجديدة³⁸. ففقدت «الجماعة» سلطتها السابقة، وأصبحت تابعة ومراقبة من طرف سلطات الحماية. ونفدت عن طريقها إدارة الحماية، بشكل أعمق لنسف جذور الحياة الجماعية القبلية.

وهكذا ظهر نمط الملكية الفردية للأرض، وتحولت العلاقات داخل القبيلة من علاقات عشيرة في مفهومها التقليدي القديم إلى علاقات اقتصادية تركز على امتلاك رؤساء القبائل والقواد ورؤساء الطرق الصوفية للأراضي الزراعية الواسعة، وتحول سائر أفراد القبيلة بالتدريج إلى فلاحين أجراء في أراضي زعمائهم.

وما لحق الزراعة من تغيير في نمط ملكيتها لحق تدريجيا ملكية الماشية، فقد تحولت هذه الأخيرة من ملكية عشيرة مشاعية إلى ملكية أسرية أو فردية، ولكن النشاط الرعوي لم يتطور في وسائله بالدرجة أو السرعة نفسها اللتان تطورت بهما الزراعة في البادية المغربية، لذلك يظل الفائض الاقتصادي المتولد من

الأوروبيين، أو من أقاليم بعيدة مثل سوس ودرعة وتافيلالت والأطلس والريف ودكالة والرحامنة وعبدة وبنو حسن، أما العمال الدائمون في مزرعة أوروبية مساحتها 250 هكتارا فيختلف عددهم باختلاف المناطق والظروف، ويتراوح بين أربعة وأثني عشر عاملا في أحسن الأحوال، منهم عامل أو عاملان أوروبيان متخصصان في تغيير آلات المزرعة والإشراف على عمل العمال المغاربة⁴⁵.

وعلى عكس العامل المغربي، كان العامل الأوروبي يتمتع بكثير من الامتيازات منها، عقود عمل مضبوطة، وأجرة مرتفعة، وسكنى، ومكافآت تراوح قيمتها بين ألفين وعشرة آلاف فرنك سنويا بالإضافة إلى امتيازات أخرى منها الاستفادة من خدمات المستوصفات، والمدارس لأبنائهم⁴⁶.

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن التنظيم النقابي في البادية المغربية قد واجه صعوبات عديدة لعدم استقرار العمال نتيجة للسياسة الاستيطانية والتقاليد الفلاحية، وعدم وجود الوعي السياسي والنقابي، وانتشار الأمية، ومحاربة سلطات الاحتلال لأي نوع من النشاط النقابي. أما «النضال الطبقي» في البادية فقد كان معدوما أيام الاستعمار الفرنسي لأن التناقض الرئيسي بين الاستعمار والحركة الوطنية قد غطى كل صراع.

كما تحولت أعداد كبيرة من الفلاحين إلى مزارعين بالمحاصة حيث يحصل المزارع على حصة عينية من المحصول بعمله هو وأفراد أسرته في أرض المالك. وتراوح نظم اقتسام المحصول بين «المربعة» أي بربع المحصول و«المخامسة» أي بخمس المحصول حسب الترتيبات والأعراف السائدة في الوسط القروي⁴⁷.

يتضح من المعطيات السالفة الذكر، أن الاستعمار الفرنسي أحدث تحولات عميقة بالبوادي المغربية، تمثلت في تحول أخصب أراضيها إلى مزارع كولونيلية،

الإقطاعية، بل أسهم في تبلورها وصياغة معالمها ورسم حدودها لكي تكون سندا قويا للمستوطنين الأجانب. كما ظهرت فئة من المغاربة المكونين من كبار ملاك الأرض الذين لا يقومون بزراعة أراضيهم بأنفسهم. وغالبا ما كانوا يقومون بتأجير أراضيهم للفلاحين أو يستأجرون عمالا زراعيين لفلاحتها. وأغلبية هؤلاء الملاك كانوا يقطنون المدن، وبهذا لم يكن بينهم وبين قراهم وفلاحها أية روابط وثيقة أو علاقات شخصية⁴³.

لقد أدت التغييرات الاستعمارية الكبيرة إلى تحول أعداد كبيرة من الفلاحين إلى عمال يتقاضون أجرا، فقد وجدت هذه الفئة من الفلاحين نفسها محرومة الملكية وعاجزة عن تطوير مقدرتها لامتلاك إنتاجها تدفعها حركة مزدوجة، فعليها من جهة أن تجدد عملا مأجورا يضمن لها حياتها، وعليها من جهة ثانية، كي لا تفقد كل شيء، أن تحافظ على تضامن تقليدي معين عائلي قروي ورثته من ماضيها. وكان الوصول إلى ظروف العمل المأجور يحصل بعقد فردي شفهي بين العامل وصاحب المزرعة وهذا مما أدى إلى نشوء شكل جديد من تبعية العامل الذي كان قد تحرر من التبعية السابقة للإقطاعيين.

إن هذه الفئة من الأجراء التي نمت ونشأت في ظل السيطرة الاستعمارية قد تضخم حجمها بسرعة كبيرة، وقد حصل هذا التوسع في حجمها بشكل رئيسي على حساب الفئات الاجتماعية الأخرى والتي اضطرها الإفكار المتزايد إلى الالتحاق بسوق العمل، بسبب سياسة الدمج الاقتصادي للسلطات الاستعمارية⁴⁴. ونشير إلى صعوبة التحديد الدقيق لعدد اليد العاملة الزراعية وتوزيعها خلال فترة الهيمنة الاستعمارية، ويزيد في تعقيد هذه المهمة أن الزراعة الأوروبية كانت تعتمد على اليد العاملة المغربية اعتمادا كلياً. وأن الكثرة الساحقة من هذه اليد العاملة موسمية تأتي من المناطق القريبة من مزارع

◀ الهوامش:

- 1 - الطيب بياض، المخزن والضريبة والاستعمار- ضريبة الترتيب-، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2011، ص.32.
- 2 - الطيب بياض، " قرن من الفلاحة بالمغرب"، مجلة زمان، العدد7، 15 أبريل/15 ماي 2014/ص.63.
- 3 - المرجع نفسه والصفحة نفسها.
- 4 - المرجع نفسه والصفحة نفسها.
- 5 - توفيق أكومي، "أربع عشرة سنة من المقاومة في ناحية تازة"، مذكرات من الثرات المغربي - تجزئة ومقاومة-، ج.5، الخزنة العامة والأرشيف بالرباط، 1985، ص:146.
- 6 أحمد تافسكا، الفلاحة الكولونيالية في المغرب (1956-1912)، مطابع أمبريال، الطبعة الأولى، الرباط، 1998، ص:35.
- 7 - أحمد تافسكا، تطور الحركة العمالية في المغرب (1939-1919)، دار ابن خلدون، بيروت، الطبعة الأولى، 1980، ص:12.
- 8 - Charles André Jullien, L'Afrique du Nord en marche: nationalismes musulmans et souveraineté française, vol.1, Tunis., 2000, p :210.
- 9 - أحمد تافسكا، الفلاحة...مرجع سابق، ص:36-35.
- 10 - René Hoffherr, L'économie marocaine, Librairie du Recueil Sirey, Paris., 1932, p :126.
- 11 - René Hoffherr, Op.cit, ص:126 pp.

بعدها قامت إدارة الحماية بنسف المؤسسات والمبادئ التي كان يقوم عليها المجتمع المغربي، والتي كانت تشكل عائقا أمام احتلال الأرض المغربية، حيث غيرت الوضعية القانونية للأرض بسن ترسانة من التشريعات شكلت السند القانوني للاستحواذ على أراضي المغاربة، وتوزيعها على الكولون الأوربي، مما أدى إلى حدوث تحولات في شكل البنية العقارية. وحرص الأوربيون على تطبيق أشكال الاستغلال الرأسمالي في الأراضي المغتصبة، باعتبار الأرض بمثابة رأسمال يدر دخلا أي ينتج فائض قيمة، فركزوا على إنتاج مزروعات تسويقية يوجه إنتاجها لتلبية حاجيات الجاليات الأوربية، ويصدر جزء منها إلى الخارج لتلبية متطلبات المتربول، مستفيدين من مساعدة ودعم إدارة الحماية من إقامة للبنيات التحتية، ومن مختلف التسهيلات المالية والتقنية.

أما الفلاحة المغربية المحلية التي كانت تلعب دورا اجتماعيا واقتصاديا لأكثرية بشرية، فقد تعرضت خلال فترة الحماية إلى تحولات عميقة، نتجت عما لحقها في علاقتها بالاقتصاد الاستعماري الذي سيطر على أجود أراضي الفلاحين المغاربة بشتى الطرق والوسائل، وحصروهم في المناطق القاحلة، فتضاءلت وسائل عيشهم، كما تصدعت البنى والعلاقات القبلية على التآزر والتضامن وعلى أساس علاقات القرابة وروابط الدم وأواصر التضامن القبلي، لتحل محلها علاقات الإنتاج المبنية على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج والفردانية التمايز الاجتماعي، وهي علاقات اجتماعية لم يألفها المجتمع المغربي بل كانت وليدة التحولات التي رافقت التدخل الاستعماري. و قد دفعت الأوضاع والمتغيرات الجديدة بالعديد ممن نزعت منهم أراضيهم إلى العمل كعمال في ضيعات المعمرين، أو الهجرة إلى المدن ليشكلوا النواة الأولى «للبروليتاريا».

- 12 - ألبير عياش، المغرب والاستعمار- حصيلة السيطرة الفرنسية- ترجمة عبد القادر الشاوي ونور الدين سعودي، مراجعة وتقديم إدريس بنسعيد وعبد الأحد السبتي، دار الخطابي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1985، ص:174.
- 13 - أحمد تافسكا، الفلاحة...مرجع سابق، ص:38-39.
- 14 -أحمد تافسكا، الفلاحة... مرجع سابق، ص:41.
- 15 - Mostafa EL arji, Immigration rurale et urbanisation à Taza (Maroc), Thèse de doctorat du 3ème cycle, Université de Toulouse de Mirail,1984, p :47.
- 16 - ألبير عياش، الفلاحة...مرجع سابق، ص:263.
- 17 - MostafaEL arji, Op.cit, p :51
- 18 - أحمد تافسكا، الفلاحة...مرجع سابق، ص:102.
- 19 -Bibliothèque nationale de- Rabat, Rapports Mensuels du Protectorat, janvier1 1927, p.2
- 20 - أحمد تافسكا، الفلاحة...مرجع سابق، ص:102.
- 21 - المرجع نفسه، ص:102.
- 22 - "ظهر شريف في احداث شركات احتياطية مختصة بالأهليين"،الجريدة الرسمية، العدد 215، 11 يونيو 1917، الموافق ل20شعبان 1335، ص:460-461.
- 23 - ظهور شريف في إلغاء الظهائر الشريفة المؤرخة برابع شعبان عام1335 الموافق لسادس وعشرين مايو سنة 1917 وبعشرين شوال عام 1937 الموافق لتاسع عشر يوليو سنة 1919، وبتاني وعشرين رجب عام 1338 الموافق لثاني عشر أبريل سنة 1920 المتعلق بشركات الاحتياطية الأهلية وتعويضها بهذا الظهير الشريف"، الجريدة الرسمية، العدد461، 28 فبراير 1922، الموافق ل4 جمادى الثانية1340، ص:242-248.
- 24 - المرجع نفسه والصفحة نفسها.
- 25 - حلیم، عبد الجليل، "الإصلاح القروي في عهد الحماية، البيزان والتحديث"، مجلة المناهل، العدد 69/70، السنة السادسة، منشورات وزارة الثقافة، 2004، ص:53.
- 26 - Anonyme, Rapport général sur le mouvement cooperatif en milieu autochtone (19341950-), in C.H.E.A.M, Rabat, 1950, p :3.
- 27 - عبد الجليل حلیم، "الإصلاح ... مرجع سابق، ص:54.
- 28 -Bibliothèque nationale de Rabat, Rapport mensuel du Protectorat, décembre, 1920, p :21.
- René Rosier, Les societés indigènes agricoles de prévoyance au Maroc, Librairie Emille la rose, 1925, p :126
- 29 - René Rosier, Les societés indigènes agricoles de prévoyance au Maroc, Librairie Emille la rose, 1925, p :126.
- 30 - عبد الجليل حلیم، «الإصلاح ... مرجع سابق، ص:54.
- 31 - "ظهر شريف في إحداث مؤسسة مركزية للتجهيز الفلاحي خاص بالفلاحين"، الجريدة الرسمية، العدد1688، 2 مارس 1945/الموافق ل 17 ربيع الأول العدد1346، ص:170.
- 32 - Abdeljalil Halim, Structures Agraires et Changement Social au

- 42 - عبد السلام أديب، مرجع سابق، ص:85.
- 43 - المرجع نفسه والصفحة نفسها.
- 44 - المرجع نفسه، ص:86.
- 45 - أحمد تافسكا، تطور... مرجع سابق، ص:89.
- 46 - المرجع نفسه، ص:90.
- 47 - عبد السلام أديب، مرجع سابق، ص:87.
- 33 - عبد الجليل حلیم، «البيزاننا»، معلمة المغرب، ج.6، نتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1998، ص:1945-1944.
- 34 - المرجع نفسه والصفحة نفسها.
- 35 J. Berque,et J.Couleau, «Vers la modernisation du fellah marocain », in B.E.S.M, vol.7, n°26, juillet1945.,1945, p :20.
- 36 - عبد السلام أديب، الصراع الطبقي والتحوليات الاقتصادية والسياسية في المغرب، منشورات النهج الديموغرافي، الرباط، 2005. ص:82.
- 37 - أحمد تافسكا، تطور... مرجع سابق، ص:67.
- 38 -Abdeljalil Ben Abdellah, « Société et gestion des ressources dans le haut Atlas central, cas des Ait ougoudid », revue Abhath, n°4, 1994, pp.5657-.
- 39 - عبد السلام أديب، مرجع سابق، ص:82.
- 40 - الهادي الهروي، القبيلة، الإقطاع والمخزن- مقاربة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث -1844-1934، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2004، ص:311-312.
- 41 - Abdelatif Ben chrifa,Culture, Changement Social et Rationalité, in Pratiques et résistances culturelles au Maghreb, Sous la direction de Noureddine Sraib, Ed CNRS,1992, p :141